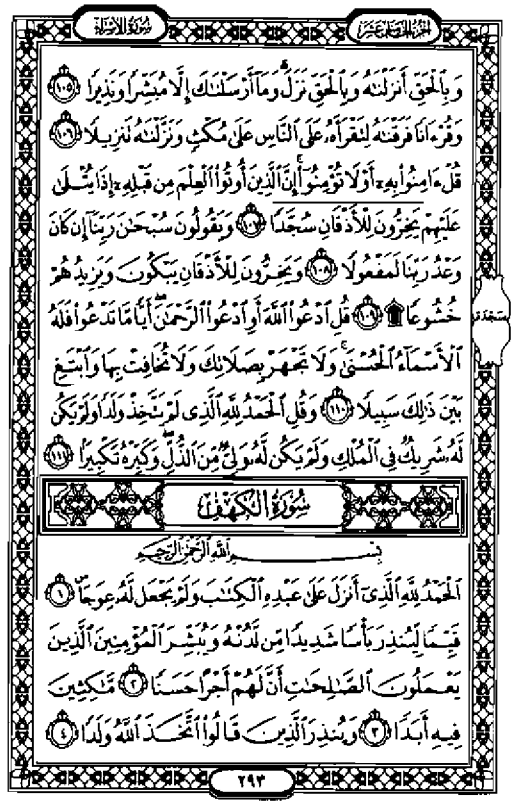
وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾
قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ
وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ
ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ
بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن
لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَهْفِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجًا ﴿١﴾
قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ
فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

٢٩٣

معانى الكلمات :

فرقناه : فصلناه أو أنزلناه مفرقا .

مكث : تأن وتمهل .

تخافت : تسر .

عوجا : اختلالا واختلافا وانحرافاً .

قيما : مستقيما معتدلا .

بأسا : عذابا .

ماكثين : باقين .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نقف على حكمة نزول القرآن مفرقا .

٢ ـ أن نقف على تأثير القرآن فى القلوب المتفتحة لاستقبال فيضه .

٣ ـ أن نعلم أنه لا لبس فى العقيدة ولا غموض .

٤ ـ أن نعلم الغرض من إنزال القرآن الكريم .

المحتوى التربوى :

يبين السياق أن هذا القرآن قد جاء بالحق ليكون آية دائمة ، ونزل مفرقا ليقرأ على مهل فى الزمن الطويل ، لقد جاء هذا القرآن ليربى أمة ، ويقيم لها نظاما ، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها ، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل ، ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقا وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة ، ووفق الملابسات التى صاحبت فترة التربية الأولى ، والتربية تتم فى الزمن الطويل ، وبالتجربة العملية فى الزمن الطويل ، جاء ليكون

منهجا عمليا يتحقق جزءاً جزءا فى مرحلة الإعداد ، لا فقها نظريا ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهنى . وتلك حكمة نزوله متفرقا ، لا كتابا كاملا منذ اللحظة الأولى .

قال صاحب الظلال : « ولقد تلقاه الجيل الأول من المسلمين على هذا المعنى ، تلقوه توجيها يطبق فى واقع الحياة كلما جاءهم منه أمر أو نهى ، وكلما تلقوا منه أدبا أو فريضة ، ولم يأخذوه متعة عقلية أو نفسية كما كانوا يأخذون الشعر والأدب ، ولا تسلية وتلهية كما كانوا يأخذون القصص والأساطير ؛ فتكيفوا به فى حياتهم اليومية ، تكيفوا به فى مشاعرهم وضمائرهم ، وفى سلوكهم ونشاطهم ، وفى بيوتهم ومعاشهم ، فكان منهج حياتهم الذى طرحوا كل ما عداه مما ورثوه ، ومما عرفوه ، وما مارسوه قبل أن يأتيهم هذا القرآن .

قال ابن مسعود ﷺ : « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » .

ولقد أنزل الله هذا القرآن قائما على الحق ، فنزل ليقر الحق فى الأرض ويثبته ، وبالحق نزل ، فالحق مادته والحق غايته ، ومن الحق قوامه ، وبالحق اهتمامه ، والرسول مبشر ومنذر بهذا الحق الذى جاء به .

وهنا يأمر الرسول ﷺ أن يجبه القوم بهذا الحق ، ويدع لهم أن يختاروا طريقهم ، إن شاؤوا آمنوا بالقرآن وإن شاؤوا لم يؤمنوا ، وعليهم تبعة ما يختارون لأنفسهم ، ويضع أمام أنظارهم نموذجا من تلقى الذين أوتوا العلم من قبله من اليهود والنصارى المؤمنين لهذا القرآن ، لعل لهم فيه قدوة وأسوة وهم الأميون الذين لم يؤتوا علما ولا كتابا .

يقول صاحب الظلال : « وهو مشهد موح يلمس الوجدان ، مشهد الذين أوتوا العلم من قبله ، وهم يسمعون القرآن فيخشعون ولا يتمالكون أنفسهم ، فهم لا يسجدون ولكن يخرون للأذقان سجدا ثم تنطق ألسنتهم بما خالج مشاعرهم من إحساس بعظمة الله ، وصدق وعده ، ويغلبهم التأثر فلا تكفى الألفاظ فى تصوير ما يجيش فى صدورهم منه ، فإذا الدموع تنطلق معبرة عن ذلك التأثر الغامر الذى لا تصوره الألفاظ فوق ما استقبلوه به من خشوع .

إنه مشهد مصور لحالة شعورية غامرة ، يرسم تأثير هذا القرآن فى القلوب المنفتحة لاستقبال فيضه ؛ العارفة بطبيعته وقيمته .

وقد عدَّ الإمام الغزالى فى الإحياء من آداب ظاهر التلاوة البكاء قال : « البكاء مستحب مع القراءة ، قال رسول الله ﷺ : « اتلوا القرآن وابكوا ، فإن لم تبكوا فتباكوا » ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا ، فإن لم تبك عين

أحدكم ، فليبك قلبه » ، وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن ، فمن الحزن ينشأ البكاء ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود ، ثم يتأمل تقصيره فى أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكى ، فإن لم يحضره حزن وبكاء كما يحضر أرباب القلوب الصافية ، فليبك على فقد الحزن والبكاء ، فإن ذلك أعظم المصائب » .

ثم يعقب السياق عليه بتركهم يدعون الله بما شاؤوا من الأسماء فكلها أسماؤه فما شاؤوا منها فليدعوه بها ، ويؤمر الرسول ﷺ أن يتوسط فى صلاته بين الجهر والخفوت لما كانوا يقابلون به صلاته من استهزاء وإيذاء ، أو نفور وابتعاد، والتوسط أليق بالوقوف فى حضرة الله .

وتختم السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد لا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولى والنصير وهو العلى الكبير .

سورة الكهف

القصص هو العنصر الغالب فى هذه السورة ، وكان البدء بدءاً فيه استقامة ، وفيه صرامة ، وفيه حمد لله على إنزاله الكتاب على عبده بهذه الاستقامة لا عوج فيه ولا التواء ، ولا مداراة ولا مداورة .

ومنذ الآية الأولى تتضح المعالم ، فلا لبس فى العقيدة ولا غموض : الله هو الذى أنزل الكتاب والحمد له على تنزيله ، ومحمد هو عبد الله ، فالكل إذن عبيد ، وليس لله من ولد ولا شريك ، والكتاب لا عوج له قيما ، يتكرر معنى الاستقامة مرة عن طريق نفى العوج ، ومرة عن طريق إثبات الاستقامة توكيداً لهذا المعنى وتشديداً فيه ، والغرض من إنزال الكتاب واضح صريح : ليخوف به من لم يؤمن ، ويبشر المؤمنين الذين صدقوا إيمانهم بالعمل الصالح بأن لهم مثوبة جميلة عندالله ، وينذر مشركى العرب الذين قالوا باتخاذ الله ولدا .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ جاء القرآن ليتخذ شرعة ومنهاجا فى واقع الحياة لا تسلية وتلهية .

٢ ـ تأثير القرآن ، لا يكون إلا فى أصحاب القلوب المنفتحة لاستقبال فيضه .

٣ ـ الفضل يرجع لله فله الحمد فى الأولى والآخرة .

٤ ـ سلوك الطريق الواضحة أساس عقيدة الإسلام فى منطق الداعى .

مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ
أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ
عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا
جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا
﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ
أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً
وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى
ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ
أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ
إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا
عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
٢٩٤

معانى الكلمات :

كبرت : عظمت فى القبح .

أسفا : غضبا وحزنا .

تبلوهم : تختبرهم .

صعيدا جرزا : ترابا أجرد لا نبات فيه .

حسبت : ظننت .

الرقيم : الكتاب .

أمدا : مدة أو غاية .

ربطنا : شددنا .

شططا : بعدا عن الحق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم أن نحكم بما نعلم ولا نتعداه .

٢ ـ أن نقف على قصة فتية الكهف واختيارهم الكهف على زينة الحياة .

٣ ـ أن نعلم أن العقيدة والتضحية أمران متلازمان .

المحتوى التربوى :

يبدأ السياق فى كشف المنهج الفاسد الذى يتخذونه للحكم على أكبر القضايا وأخطرها قضية العقيدة ، فما أشنع وما أفظع أن يفضوا بهذا القول بغير علم ، هكذا جزافا ، وتشترك الألفاظ بنظمها فى العبرة وجرسها فى النطق فى تفظيع هذه الكلمة التى يقولونها ، فهو يبدأ بكلمة «كبرت» لتجبه السامع بالضخامة والفظاعة وتملأ الجو بها ، ويجعل الكلمة الكبيرة تميزاً لضميرها فى الجملة : « كبرت كلمة » زيادة فى توجيه الانتباه إليها .

ويجعل هذه الكلمة تخرج من أفواههم خروجا كأنها تنطلق منها جزافا وتندفع منها اندفاعا ، وتشارك لفظة أفواههم بجرسها الخاص فى تكبير هذه الكلمة وتفظيعها ، فالناطق بها بفتح فاه فى مقطعها الأول بما فيه من مد : « أفوا ... » ثم تتوالى الهاءان فيمتلئ الفم بهما قبل أن يطبق على الميم فى نهاية اللفظة : « أفواههم » ، وبذلك يشترك نظم الجملة وجرس اللفظة فى تصوير المعنى ورسم الظل .

ويعقب على ذلك بالتوكيد عن طريق النفى والاستثناء ، ويختار للنفى كلمة «إن» لا كلمة «ما» لأن فى الأولى صرامة بالسكوت الواضح ، وفى لفظ «ما» شىء من الليونة بالمد ، وذلك لزيادة التشديد فى الاستنكار ، ولزيادة التوكيد لكذب هذه الكلمة الكبيرة .

ويمضى السياق فيما يشبه الإنكار يقول للرسول ﷺ : لعلك قاتل نفسك أسفا وحزنا عليهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، وما يستحق هؤلاء أن تحزن عليهم وتأسف ، فدعهم فقد جعلنا ما على الأرض من زخرف ومتاع وأموال وأولاد ، جعلناه اختباراً وامتحانا لأهلها ليتبين من يحسن منهم العمل فى الدنيا ، ويستحق نعمتها كما يستحق نعيم الآخرة ، والله يعلم ولكنه يجزى على ما يصدر من العباد فعلاً ، وما يتحقق منهم فى الحياة عملا ، ويسكت عمن لا يحسنون العمل فلا يذكرهم لأن مفهوم التعبير واضح ، ونهاية هذه الزينة محتومة فستعود الأرض مجردة منها، وسيهلك كل ما عليها ، فتصبح قبل القيامة سطحا أجرد خشنا جدبا .

وينتقل السياق إلى قصة أصحاب الكهف ، فتعرض القصة نموذجا للإيمان فى النفوس المؤمنة ، كيف تطمئن به ، وتؤثره على زينة الأرض ومتاعها ، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس ، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة ويشملها بالرحمة .

يقول صاحب الأساس: « إن قصة أهل الكهف نموذج لطلاب الآخرة العازفين عن زينة الحياة الدنيا ، ونموذج للدخول فى الإسلام كله فى أيام الفتنة ، ولقد رأينا كيف أن أهل الكهف اعتزلوا وأووا إلى الكهف داعين إلى الله عز وجل هذا الدعاء الذى قصه الله علينا ، وهو دعاء الفارين بدينهم من الفتن .

والطريقة التى اتبعت فى عرض هذه القصة هى طريقة التلخيص الإجمالى أولا ، ثم العرض التفصيلى أخيراً ، فنعرف أن أصحاب الكهف فتية ـ لا نعلم عددهم ـ آووا إلى الكهف وهم مؤمنون ، وأنه ضرب على آذانهم فى الكهف فناموا سنين معدودة ـ لا نعلم عددها ، وأنهم بعثوا من رقدتهم الطويلة ، وأنه كان هناك فريقان يتجادلان فى شأنهم ، ثم لبثوا فى الكهف ، فبعثوا

ليتبين أى الفريقين أدق إحصاء ، وأن قصتهم على غرابتها ليست بأعجب آيات الله ، وفى صفحات هذا الكون من العجائب ، وفى ثناياه من الغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف والرقيم .

ثم يبدأ العرض التفصيلى ، فيذكر أنهم فتية فروا بدينهم من قومهم ، لئلا يفتنوهم عنه ، فهربوا منهم فلجؤوا إلى غار فى جبل ليختفوا عن قومهم .

يقول ابن كثير : « ذكر تعالى أنهم فتية وهم الشباب ـ وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ ، الذين قد عتوا وانغمسوا فى دين الباطل ؛ ولهذا كان أكثرهم المستجيبين لله ولرسوله ﷺ شبابا ، وأما المشايخ من قريش فعامتهم بقوا على دينهم ولم يسلم منهم إلا القليل ، وهكذا أخبر تعالى عن أصحاب الكهف أنهم كانوا فتية شبابا » .

هؤلاء الفتية ألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم فهم يدبرون أمرهم ، وربط على قلوبهم فإذا هى ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق الذى عرفت ، معتزة بالإيمان الذى اختارت ، فعزموا على المواجهة وثبتوا على إيمانهم بالله رب السموات والأرض ـ فرب هذا الكون كله واحد لا شريك له ـ ولم يتجاوزوا الحق ويحيدوا عن الصواب .

ويعلنون المواجهة فى استنكارهم على قومهم المنهج الذى يسلكونه فى تكوين العقيدة ، وطريق الاعتقاد ينبغى أن يكون للإنسان فيه دليل قوى يستند إليه ، وبرهان له سلطان على النفوس والعقول ، وإلا فهو الكذب الشنيع ؛ لأنه الكذب على الله . وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحا صريحا حاسما ، لا تردد فيه ولا تلعثم ، إنهم فتية أشداء فى أجسامهم ، أشداء فى إيمانهم ، أشداء فى استنكار ما عليه قومهم .

وقد خاطبهم الله سبحانه وتعالى بالوحى والإلهام عندما كانت المفارقة الفكرية بينهم وبين قومهم ، واعتزالهم لهؤلاء الأقوام أن يجعلهم آية لمن بعدهم فألهمهم أن يأووا إلى الكهف .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الدنيا دار اختبار وابتلاء ، لا دار قرار وجزاء ، والعاقل يتخذها طريقا إلى الجنة .

٢ ـ الله عز وجل ـ يرعى النفوس المؤمنة ، ويقيها الفتنة ويشملها الرحمة ، فحمى الله أوسع .

٣ ـ المؤمن معتز بإيمانه ، ثابت عليه لا يتردد ولا يتلعثم مهما بلغت قوة الباطل .

٤ ـ المؤمن ليس سلبيا ، بل يتخذ كل سبل المواجهة فى الذب عن عقيدته .

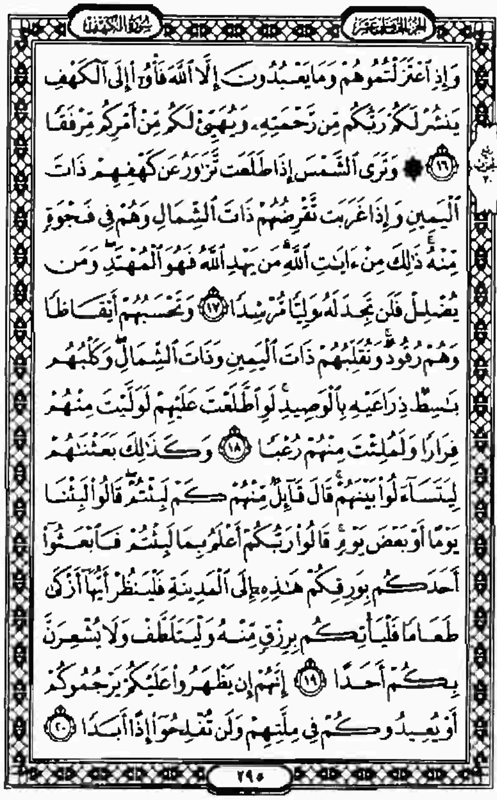
الجزء الخامس عشر — سورة الكهف

وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف
ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا
﴿١٦﴾ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات
اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة
منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن
يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ﴿١٧﴾ وتحسبهم أيقاظا
وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم
باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم
فرارا ولملئت منهم رعبا ﴿١٨﴾ وكذلك بعثناهم
ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا
يوما أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا
أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى
طعاما فليأتكم برزق منه وليتلطف ولا يشعرن
بكم أحدا ﴿١٩﴾ إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم
أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبدا ﴿٢٠﴾

٢٩٥

معانى الكلمات :

مرفقا : ما ينتفع به فى العيش .

تزاور : تميل .

تقرض : تبتعد .

الوصيد : فناء الكهف أو عتبة بابه .

رعبا : خوفا وفزعا .

ورق : فضة مضروبة نقودا .

يظهر : يطلع أو يغلب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نلحظ أثر الإيمان العميق لأصحاب الكهف .

٢ ـ أن نتفكر فى قدرة الله ، وأنها لا يعجزها شىء .

٣ ـ أهل الإيمان قوم عمليون ، يتركون البحث فيما لا طائل تحته .

المحتوى التربوى :

إن فتية الكهف تبين لهم الهدى فى وسطٍ ظالم كافر ، ولا حياة لهم فى هذا الوسط إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها ، وهم لا يطيقون كذلك أن يداروا القوم ويداوروهم ، ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله ، والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله ، وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة ، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم .

وهنا ينكشف العجب فى شأن القلوب المؤمنة ، فهؤلاء الفتية الذين يعتزلون قومهم ، ويهجرون ديارهم ويفارقون أهلهم ، ويتجردون من زينة الأرض ومتاع الحياة ، هؤلاء الذين

يأوون إلى الكهف الضيق الخشن المظلم ، هؤلاء يستروحون رحمة ، ويحسون هذه الرحمة ظليلة فسيحة ممتدة ، ولفظة «ينشر» تلقى ظلال السعة والبحبوحة والانفساح ، فإذا الكهف فضاء فسيح رحيب وسيع تنتشر فيه الرحمة ، وتتسع خيوطها وتمتد ظلالها ، وتشملهم بالرفق واللين والرخاء ، إن الحدود الضيقة لتنزاح ، وإن الجدران الصلبة لترق ، وإن الوحشة الموغلة لتشف ، فإذا الرحمة والرفق والراحة والارتفاق ، إنه الإيمان .

وما قيمة الظواهر ؟ وما قيمة القيم والأوضاع والمدلولات التى تعارف عليها الناس فى حياتهم الأرضية ؟ إن هنالك عالما آخر فى جنبات القلب المغمور بالإيمان المأنوس بالرحمن ، عالما تظلله الرحمة والرفق والاطمئنان والرضوان .

يقول القاسمى : « زعم قوم أن الآية تفيد مشروعية العزلة واستحبابها مطلقا ، وهو خطأ ، فإنها تشير إلى التأسى بأهل الكهف فى الاعتزال ، إذا اضطهد المرء فى دينه وأريد على الشرك ، وممن رد الاحتجاج بهذه الآية على تفضيل العزلة الإمام الغزالى فى إحيائه : وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضا وهم مؤمنون ، وإنما اعتزلوا الكفار، ولا ريب فى مشروعيته فراراً فى الفتن» .

ويرفع الستار على مشهد آخر والفتية فى الكهف وقد ضرب الله عليهم النعاس ، وهو مشهد تصويرى عجيب ، ينقل بالكلمات هيئة الفتية فى الكهف ، كما يلتقطها شريط متحرك ، والشمس تطلع على الكهف فتميل عنه كأنها متعمدة ، وتغرب فتجاوزهم إلى الشمال وهم فى سعة من الكهف يصل إليهم الهواء من كل جانب دون أذى الشمس .

ويأتى أحد التعليقات القرآنية التى تتخلل سياق القصص لتوجيه القلوب فى اللحظة المناسبة فيشير إلى أن وضعهم هكذا فى الكهف والشمس لا تنالهم بأشعتها وتقرب منهم بضوئها ، وهم فى مكانهم لا يموتون ولا يتحركون ـ هو من آيات الله ، ومن اهتدى بآيات الله فقد هداه الله وفق ناموسه وهو المهتدى حقا ، ومن لم يأخذ بأسباب الهدى ضل وجاء ضلاله وفق الناموس الإلهى ، فقد أضله الله إذن ، ولن تجد له من بعدها هاديا .

ثم يمضى السياق يكمل المشهد العجيب ؛ وهم يقلبون من جنب إلى جنب فى نومتهم الطويلة ، فيحسبهم الرائى أيقاظا وهم رقود ، وكلبهم ـ على عادة الكلاب ـ باسط ذراعيه بالفناء قريبا من باب الكهف كأنه يحرسهم ، وهم فى هيئتهم هذه يثيرون الرعب فى قلب من يطلع عليهم ، إذ يراهم نيامًا كالأيقاظ ، ينقلبون ولا يستيقظون ، ذلك من تدبير الله كى لا يعبث بهم عابث حتى يحين الوقت المعلوم .

وفجأة تدب فيهم الحياة،والفتية يستيقظون وهم لا يعرفون كم لبثوا منذ أن أدركهم النعاس، إنهم يفركون أعينهم ، ويلتفت أحدهم إلى الآخر فيسأل كم لبثتم ؟ وكان الجواب يوما أو بعض يوم ، ثم رأوا أن يتركوا هذه المسألة التى لا طائل وراء البحث فيها ، ويدعوا أمرها لله ـ شأن المؤمن فى كل ما يعرض له مما يجهله ـ وأن يأخذوا فى شأن عملى ، فهم جائعون ، ولديهم نقود فضية خرجوا بها من المدينة إذن فليبعثوا بأحدهم ليختر أطيب طعام فى المدينة ليأتهم بشىء منه .

ونشهد الفتية يتناجون فيما بينهم حذرين خائفين أن ينكشف أمرهم ويعرف مخبأهم ، فيأخذهم أصحاب السلطان فى المدينة فيقتلوهم رجما ، أو يفتنوهم عن عقيدتهم بالتعذيب ، فيوصوا الرسول المبعوث أن يكون حذراً لبقا .

كل هذا الحذر وهم لا يدرون أن الأعوام قد كرت ، وأن عجلة الزمن قد دارت ، وأن أجيالا قد تعاقبت ، وأن مدينتهم التى يعرفونها قد تغيرت معالمها ، وأن المتسلطين الذين يخشونهم على عقيدتهم قد زالت دولتهم ، وأن قصة الفتية الذين فروا بدينهم فى عهد الملك الظالم قد تناقلها الخلف عن السلف ؛ وأن الأقاويل حولهم متعارضة حول عقيدتهم ، وحول الفترة التى مضت منذ اختفائهم .

ولنا أن نتصور ضخامة المفاجأة التى اعترت الفتية بعد أن أيقن زميلهم أن المدينة قد مضى عليها العهد الطويل منذ أن فارقوها ، وأنهم من جيل قديم مضت عليه القرون وأنهم أعجوبة فى نظر الناس وحسهم ، ولن يمكن للناس أن يعاملوهم كبشر عاديين ، وأن كل ما يربطهم بجيلهم من قرابات ومعاملات ومشاعر وعادات وتقاليد ، كله قد تقطع ، فهم أشبه بالذكرى الحية منهم بالأشخاص الواقعية ، فيرحمهم الله من هذا كله فيتوفاهم .

هذا وبين المشاهد فجوة أعرض عنها السياق ، ليتجول الخيال فى مساحة فسيحة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ المؤمن فى يقين من نصرة الله لأوليائه ، وأنه جاعل لهم من كل ضيق فرجا ومخرجا .

٢ ـ قدرة الله لا يعجزها شىء ، ودلائل قدرته تزيد فى عمق الإيمان .

٣ ـ وجوب طلب الحلال فى الطعام والشراب وغيرهما .

٤ ـ الأخذ بالحيطة من أسباب الفلاح .

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ
إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا
﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾
٢٩٦

معانى الكلمات :

أعثرنا : أطلعنا .

رجما بالغيب : قولا بالظن من غير يقين .

تمار : تجادل .

رشدا : هداية .

لبثوا : مكثوا .

ملتحدا : ملجأ .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على موضع العبرة فى خاتمة فتية الكهف .

٢ ـ أن نعلم من منهج الإسلام صيانة الطاقة العقلية أن تبدد فى غير ما يفيد .

٣ ـ أن ننتهى عن الجدل فى غيب الماضى ، وأن نحسب حساب الغيب فى أمر المستقبل .

المحتوى التربوى :

يعرض السياق القرآنى المشهد الأخير ؛ مشهد وفاتهم ، ويعهد مباشرة إلى العبرة المستقاة من هذا الحادث العجيب ، وتكمن فى خاتمة هؤلاء الفتية ودلالتها على البعث بمثل واقعى قريب محسوس ، يقرب إلى الناس قضية البعث فيعلمون أن وعد الله بالبعث حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ، وعلى هذا النحو بعث الفتية من نومتهم فأعثر قومهم عليهم .

ويعرض موقف الناس خارج الكهف يتنازعون فى شأنهم ، على أى دين كانوا ، وكيف يخلدونهم ويحفظون ذكراهم للأجيال ، فقد قال بعضهم : سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم فربهم أعلم بما كانوا عليه من عقيدة ، وقال أصحاب السلطان ـ فى ذلك الأوان:

لنتخذن عليهم معبدا على طريقة اليهود والنصارى فى اتخاذ المعابد على مقابر الأنبياء والقديسين ، وكما يصنع اليوم من يقلدونهم من المسلمين مخالفين لهدى الرسول ﷺ : « لعن الله اليهود والنصارى . اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد » يحذر ما فعلوا .

وينتقل السياق إلى مشهد آخر لنسمع الجدل حول أصحاب الكهف ـ على عادة الناس يتناقلون الروايات والأخبار ، ويزيدون فيها وينقصون ، ويضيفون إليها من خيالهم جيلا بعد جيل ، حتى تتضخم وتتحول ، وتكثر الأقاويل حول الخبر الواحد أو الحادث الواحد كلما مرت القرون .

ولا ضرورة للجدل الطويل حول عددهم والعبرة حاصلة بالقليل وبالكثير ، لذا يوجه القرآن إلى ترك الجدل فى هذه القضية وإلى عدم استفتاء أحد المتجادلين فى شأنهم ؛ تمشيا مع منهج الإسلام فى صيانة الطاقة العقلية أن تبدد فى غير ما يفيد ، وفى ألا يقفو المسلم ما ليس به علم وثيق ، وهذا الحادث غيب موكول إلى علم فليترك إلى علم الله .

يقول ابن تيمية فى قاعدة له فى التفسير : « اشتملت هذه الآية الكريمة على الأدب فى هذا المقام مقام حكاية الأقوال ، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذه ؛ فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ، ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث فدل على صحته ؛ إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لا طائل تحته ، فيقال فى مثل هذا ﴿ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ فإنه ما يعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه، فبهذا قال : لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب ، فهذا أحسن ما يكون فى حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام، وأن ينبه على الصحيح منها ويبطل الباطل ، ويذكر فائدة الخلاف وثمرته ؛ لئلا يقع النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته ، فيشتغل به عن الأهم ، فأما من حكى خلافا فى مسألة ، ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص ، إذ قد يكون الصواب فى الذى تركه ، أو يحكى الخلاف ويطلقه ، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضا » .

وينتقل السياق من النهى عن الجدل فى غيب الماضى إلى النهى عن الحكم على غيب المستقبل وما يقع فيه ، فالإنسان لا يدرى ما يكون فى المستقبل حتى يقطع برأى فيه ، فكل حركة وكل نأمة ، بل كل نفس من أنفاس الحى مرهون بإرادة الله ، وسجف الغيب مسبل يحجب ما وراء اللحظة الحاضرة، وعين الإنسان لا تمتد إلى ما وراء الستر المسدل ، وعقله مهما علم قاصر كليل، فلا يقل إنسان : إنى فاعل ذلك غداً ، وغداً فى غيب الله ، وأستار غيب الله دون العواقب .

وليس معنى هذا أن يقعد الإنسان لا يفكر فى أمر المستقبل ، ولا يدبر له ، بل معناه أن يحسب حساب الغيب، وحساب المشيئة التى تدبره، وأن يعزم ما يعزم ويستعين بمشيئة الله على ما يعزم، ويستشعر أن يد الله فوق يده ، فلا يستبعد أن يكون لله تدبير غير تدبيره ، فإن وفقه الله إلى ما اعتزم فبها ، وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس ؛ لأن الأمر لله أولا وأخيراً .

ويأتى الإرشاد بأنك إذا نسيت هذا التوجيه والاتجاه فاذكر ربك وارجع إليه ، وإذا سئلت عن شىء لا تعلمه فأسأل الله فيه ، وتوجه إليه أن يوفقك للصواب والرشد من هذا النهج الذى يصل القلب دائما بالله فى كل ما يهم به وكل ما يتوجه إليه .

وتجىء كلمة «عسى» وكلمة «لأقرب» للدلالة على ارتفاع هذا المرتقى ، وضرورة المحاولة الدائمة للاستواء عليه فى جميع الأحوال .

وإلى هنا لم نكن نعلم كم لبث الفتية فى الكهف ، فلنعرفه الآن لنعرفه على وجه اليقين ، وهو أنهم لبثوا ثلاثمائة من السنين وازدادوا تسعا ، وهذا فصل الخطاب يقرره عالم غيب السموات والأرض ما أبصره وما أسمعه سبحانه! فلا جدال بعد هذا ولا مراء .

ويعقب على القصة بإعلان الوحدانية الظاهرة الأثر فى سير القصة وأحداثها ، وبتوجيه الرسول ﷺ إلى تلاوة ما أوحاه ربه إليه ، وفيه فصل الخطاب والاتجاه إلى الله وحده فليس من حمى إلا حماه .

قال ابن جرير : « يقول الله تعالى لنبيه واتبع ما أنزل إليك من كتاب ربك هذا ، ولا تتركن تلاوته واتباع ما فيه من أمر الله ونهيه والعمل بحلاله وحرامه ، فتكون من الهالكين ، وذلك أن مصير من خالفه وترك اتباعه يوم القيامة إلى جهنم ولا مغير لما أوعد الله بكلماته التى أنزلها عليك ، وإن أنت لم تتل ما أوحى إليك من كتاب ربك فتتبعه وتأثم به ، فنالك وعيد الله الذى أوعد فيه المخالفين حدوده ، لن تجد من دون الله موئلا تئل إليه ؛ لأن قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه .. »

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ استغلال الوقت والطاقة فيما يفيد بتعلم فقه الأولويات .

٢ ـ على المسلم أن يسعى السعى الحثيث ، وهو يستشعر أن يد الله فوق يده فيقوى بالاعتماد عليه .

٣ ـ ليس من حمى إلا حمى الله ، فقد فر إليه أهل الكهف فشملهم برحمته .

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ
الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا
وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ
الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَٰٓئِكَ
لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ
مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) ۞ وَاضْرِبْ الحزب ٣٠
لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا
بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ
تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ
لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)

٢٩٧

معانى الكلمات :

اصبر نفسك : ثبت نفسك .

لا تعد : لا تصرف .

فرطا : إسرافا .

سرادقها : لهيبها أوما يحيط بها .

مرتفقا : متكأ .

آرائك : أسرة .

سندس وإستبرق : حرير رقيق وسميك .

حففنا : أحطنا ولففنا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الدعوات لا تقوم إلا على القلوب التى تتجه إلى الله خالصة له لا تبغى جاها ولا انتفاعا .

٢ ـ أن نعلم أن العقيدة ليست ملكا لأحد حتى يجامل فيها إنها هى ملك لله ، والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها .

٣ ـ أن نتذكر أن القيم الحقيقية ليست هى المال أو الجاه أو السلطان أو اللذائذ ، والمتاع فى هذه الحياة ، إنها هى فى القرب من الله .

المحتوى التربوى :

يروى أن أشراف قريش ، حين طلبوا إلى الرسول ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين من أمثال بلال وصهيب وعمار وخباب وابن مسعود إذا كان يطمع فى إيمان رؤوس قريش ، أو أن يجعل لهم مجلسا غير مجلس هؤلاء النفر ؛ لأن عليهم جبابا تفوح منها رائحة العرق ، فتؤذى السادة من كبراء قريش .

ويروى أن الرسول ﷺ طمع فى إيمانهم فحدثته نفسه فيما طلبوا إليه فأنزل الله عز وجل هذه الآيات ، لتعلن عن القيم الحقيقية ، وتقيم الميزان الذى لا يخطئ ، وهذا هو الحق ، فمن شاء بعد هذا البيان أن يؤمن أو يكفر فليفعل ، فالإسلام لا يتملق أحدًا ، ولا يزن الناس بموازين غير ميزانه ، فلا تمل ولا تستعجل ، فالله غايتهم يتجهون إليه بالغداة والعشى لا يتحولون عنه ، ولا يبتغون إلا رضاه ، وما يبتغونه أجل وأعلى من كل ما يبتغيه طلاب الحياة ، فاصبر نفسك مع هؤلاء ، صاحبهم وجالسهم وعلمهم ففيهم الخير ، وعلى مثلهم تقوم الدعوات .

يقول صاحب الظلال : « الدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة ، ومن يعتنقونها ليقودوا بها الأتباع ، ومن يعتنقونها ليحققوا بها الأطماع ، وليتجروا بها فى سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ، إنما تقوم الدعوات بهذه القلوب التى تتجه إلى الله خالصة له ، لا تبغى جاها ولا متاعا ولا انتفاعا ، إنما تبتغى وجهه وترجو رضاه » .

فلا يتحول اهتمامك عنهم إلى مظاهر الحياة التى يستمتع بها أصحاب الزينة ، فهذه الزينة لا ترتفع إلى ذلك الأفق العالى الذى يتطلع إليه من يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تطع الكافرين فيما يطلبون من تمييز بينهم وبين الفقراء ، لا تطع من أغفلنا قلبه حين اتجه إلى ذاته وإلى ماله ، وإلى أبنائه ، وإلى متاعه ولذائذه وشهواته ، فلم يعد فى قلبه متسع لله ، والقلب الذى يشتغل بهذه الشواغل ، ويجعلها غاية حياته لا جرم يغفل عن ذكر الله ، فيزيده الله غفلة ، حتى تفلت الأيام من بين يديه ، ويلقى ما أعده الله لأمثاله الذين يظلمون أنفسهم ، ويظلمون غيرهم .

يقول صاحب الظلال : « الحق لا يثنى ولا ينحنى ، إنما يسير فى طريقه قيما لا عوج فيه ، قويا لا ضعف فيه ، صريحا لا مداورة فيه ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ومن لم يعجبه الحق فليذهب ، ومن لم يجعل هواه تبعا لما جاء من عند الله فلا مجاملة على حساب العقيدة ، ومن لم يحن هامته ويطامن من كبريائه أمام جلال الله فلا حاجة بالعقيدة إليه .

إن العقيدة ليست ملكا لأحد حتى يجامل فيها ، إنما هى ملك لله ، والله غنى عن العالمين ، والعقيدة لا تعتز ولا تنتصر بمن لا يريدونها لذاتها خالصة ، ولا يأخذونها كما هى بلا تحوير ، والذى يترفع عن المؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين » .

ثم يعرض السياق ما أعد للكافرين ، وما أعد للمؤمنين فى مشهد من مشاهد القيامة ؛ فهناك نار معدة ومحضرة ، فهى لا تحتاج إلى جهد لإيقادها ، ولا تستغرق زمنا لإعدادها ، ومع أن خلق

أى شيء لا يقتضى إلا كلمة الإرادة : كن فيكون ، والتعبير هنا بلفظ ﴿ أَعْتَدْنَا ﴾ يلقى ظل السرعة والتهيؤ والاستعداد ، والأخذ المباشر إلى النار المعدة المهيأة للاستقبال .

وهى نار ذات سرادق يحيط بالظالمين فلا سبيل إلى الهرب ، ولا أمل فى النجاة والإفلات ، ولا مطمع فى منقذ تهب منه نسمة ، أو يكون فيه استرواح ، فإن استغاثوا من الحريق والظمأ ، أغيثوا بماء كدردىّ الزيت المغلى فى قول ، وكالصديد الساخن فى قول ، يشوى الوجوه بالقرب منها فكيف بالحلوق والبطون التى تتجرعه ، فبئس هذا الشراب الذى يغاث به الملهوفون من الحريق ، ويا لسوء النار ـ وسرادقها مكانا للارتفاق والاتكاء ، وفى ذكر الارتفاق فى سرادق النار تهكم مرير ، فما هم هنالك للارتفاق إنما هم للاشتواء .

وبينما هؤلاء كذلك إذا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات عدن للإقامة ، تجرى من تحتهم الأنهار بالرى وبهجة المنظر واعتدال النسيم ، وهم هنالك للارتفاق حقا ، ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ وهم رافلون فى ألوان من الحرير من سندس ناعم خفيف ، ومن إستبرق مخمل كثيف ، تزيد عليهما أساور من ذهب للزينة والمتاع ، فنعم الثواب .

ثم تجىء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلا للقيم الزائلة والقيم الباقية ، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله ، وكلاهما نموذج إنسانى لطائفة من الناس .

وتبدأ القصة بمشهد الجنتين فى ازدهار وفخامة ؛ فهما جنتان مثمرتان من الكروم ، محفوفتان بسياج من النخيل ، تتوسطهما الزروع ، ويتفجر بينهما نهر ، إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال ، وكل جنة آتت أكلها ، ولم تمنع أو تنقص من ثمرها شيئا .

وصاحب الجنتين نموذج للرجل الثرى تذهله الثروة وتبطره النعمة ، فينسى القوة الكبرى التى تسيطر على أقدار الناس والحياة ، فتمتلئ نفسه بجنتيه ، ويزدهيه النظر إليهما فيحس بالزهو ، وينتفش كالديك ، ويختال كالطاووس ، ويتعالى على صاحبه الفقير ، فيراجعه الكلام تعييراً له بالفقر ، وفخرا عليه بالمال والجاه والأنصار والحشم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لقد جاء الإسلام ليسوى بين الرؤوس ، ولا ينفع الإنسان إلا عمله .

٢ ـ الذى يترفع على المؤمنين لا يرجى منه خير للإسلام ولا المسلمين .

٣ ـ ترسم قصة الرجلين نموذجين للنفس المعتزة بزينة الحياة ، والنفس المعتزة بالله .

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ
أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ
أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا
﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾
٢٩٨

معانى الكلمات :

تبيد : تهلك وتفنى .

منقلبا : مرجعا .

حسبانا : عذابا كالصواعق .

صعيدا زلقا: ترابا أملس لا تثبت فيه قدم .

غورا : غائرا .

خاوية : ساقطة .

هشيما : يابسا متفتتا .

تذروه : تفرقه وتنسفه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعلم كيف يكون الرجل المؤمن معتزا بإيمانه وعقيدته .

٢ ـ أن نعلم عاقبة الغرور والبغى .

٣ ـ أن نعلم ألا قوة إلا قوة الله ، ولا نصر إلا نصره ، وثوابه هو خير الثواب .

المحتوى التربوى :

يتابع السياق حديثه عن صاحب الجنتين فيصوره وهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين ، وملء نفسه البطر ، وملء جنبه الغرور ، وقد نسى الله ، ونسى أن يشكره على ما أعطاه ، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبداً ، أنكر قيام الساعة أصلا ، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار ، أليس من أصحاب الجنان فى الدنيا فلابد أن يكون جنابه ملحوظا فى الآخرة .

إنه الغرور يخيل لذوى الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التى يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى فى الملأ الأعلى ، فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلابد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ .

فأما صاحبه الفقير الذى لا مال له ولا نفر ، ولا جنة عنده ولا ثمر ، فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى ، معتز بعقيدته وإيمانه ، معتز بالله الذى تعنو له الجباه ، فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكرا عليه بطره وكبره ، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى الأدب الواجب فى حق المنعم ، وينذره عاقبة البطر والكبر ، ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار .

وهذا الرجل الفقير نفسه مطمئنة ، فهى تحس ـ كما قال الإمام أبو زهرة :

أولا : بأن الله هو الخالق ، وأنه خلق الإنسان من تراب وأنه الواحد الأحد .

ثانيا : وأنه هو المعطى ، والمعطى يستحق الشكر .

ثالثا : والتفويض إلى الله ، والإحساس بأن كل شىء عطاء منه بعد اتخاذ الأسباب .

رابعا : وبأنه موضع الرجاء على أن يفوض الأمر إليه ، وأن من أعطى يمنع إذا اغتر من أعطاه ، ورغب عن طاعته ، وأن عليه أن يتذكر المنع عند العطاء ، وأن يتذكر حاله إذا فقد النصير وهذا جوابه لما حاوره صاحبه مفاخرا .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا تنتفض عزة الإيمان فى النفس المؤمنة فلا تبالى المال والنفر ، ولا تدارى الغنى والبطر ، ولا تتلعثم فى الحق ولا تجامل فيه الأصحاب ، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال ، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة ، وأن فضل الله عظيم وهو يطمع فى فضل الله ، وأن نقمة الله جبارة وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين » .

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار ، ومن هيئة البطر والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار ، فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن ؛ الثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شىء ، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة ، وصاحبها يقلب كفيه أسفا وحزنا على ماله الضائع وجهده الذاهب ، وهو نادم على إشراكه بالله ، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته ، ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركا ينكره الآن ، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان .

هنا يتفرد الله بالولاية والقدرة: فلا قوة إلا قوته، ولا نصر إلا نصره ، وثوابه هو خير الثواب، وما يبقى عنده للمرء من خير فهو خير ما يتبقى .

ويسدل الستار على مشهد الجنة الخاوية على عروشها ، وموقف صاحبها يقلب كفيه أسفا وندما ، وجلال الله يظلل الموقف حيث تتوارى قدرة الإنسان .

يقول صاحب الأساس : « القصة تبين أن الاغترار بزينة الحياة الدنيا يؤدى إلى الكفر كما تبين جهل من يتصور أن إعطاء الله الحياة الدنيا علامة كرامة دائما ، قد يكون الأمر كذلك وقد لا يكون ، وفى خاتمة القصة إذا تصبح الجنة صعيدا زلقا تذكير بالنهاية الكلية للدنيا كلها ، وللأرض كلها يوم القيامة ، وندم صاحب الجنة فى هذا المقام أقل بكثير من الندم يوم القيامة .

وقد رأينا فى القصة كيف كانت الحياة الدنيا مزينة للكافر ، وكيف كان يسخر من المؤمن ، ويترفع عليه ويفتخر ، وقد عرضت لنا القصة نوعا من أنواع فوقية المؤمن على الكافر ، حتى فى الحياة الدنيا فضلا عن الآخرة ، ومن ثم ختمت القصة بقوله تعالى : ﴿ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ وكل ذلك يخدم موضوع الدخول فى الإسلام كله ؛ إذ العبرة للخواتيم ، والخواتيم لأهل الإيمان».

وأمام هذا المشهد يضرب مثلا للحياة الدنيا كلها ، فإذا هى كتلك الجنة المضروبة مثلا ، قصيرة قصيرة ، لا بقاء لها ولا قرار ، فالمشهد قصير خاطف يلقى فى النفس ظل الفناء والزوال ، فالماء ينزل من السماء فلا يجرى ولا يسيل ولكنه يختلط به نبات الأرض ، والنبات لا ينمو ولا ينضج ، ولكنه يصبح هشيما تذروه الرياح ، وما بين ثلاث جمل قصار ينتهى شريط الحياة .

ولقد استخدم النسق اللفظى فى تقصير عرض المشاهد بالتعقيب الذى تدل عليه الفاء ﴿ كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ فـ ﴿ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ ﴾ فـ ﴿ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ فما أقصرها حياة ، وما أهونها حياة .

يقول القاسمى : « وهكذا حال الدنيا وحال مجرميها ، فإن ما نالهم من شرف الحياة كالذى حصل للنبات من شرف النمو ، ثم يزولون زوال النبات ، والله قادر على كل من الإنشاء والإفناء » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يكون ذاكراً لربه ، وقدرته التى تسيطر على أقدار الناس والحياة .

٢ ـ شكر النعمة حق واجب للمنعم .

٣ ـ ما عند الله خير من أعراض الدنيا .

٤ ـ الحياة كتلك الجنة المضروبة مثلا قصيرة لا بقاء لها ولا قرار .

٥ ـ يزول الكافر عن شرفه المزعوم كما يزول النبات بعد نموه .

الجزء الخامس عشر سورة الكهف

المال والبنون زينة الحيوة الدنيا والبقيت الصلحت
خير عند ربك ثوابا وخير أملا ﴿٤٦﴾ ويوم نسير الجبال وترى
الأرض بارزة وحشرنهم فلم نغادر منهم أحدا ﴿٤٧﴾ وعرضوا
على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقنكم أول مرة بل زعمتم
ألن نجعل لكم موعدا ﴿٤٨﴾ ووضع الكتب فترى المجرمين
مشفقين مما فيه ويقولون يويلتنا مال هذا الكتب
لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصىها ووجدوا ما عملوا
حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴿٤٩﴾ وإذ قلنا للملئكة اسجدوا
لأدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه
أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو
بئس للظلمين بدلا ﴿٥٠﴾ ۞ ما أشهدتهم خلق السموت
والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا
﴿٥١﴾ ويوم يقول نادوا شركاءي الذين زعمتم فدعوهم
فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا ﴿٥٢﴾ ورءا المجرمون
النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا ﴿٥٣﴾

٢٩٩

معانى الكلمات :

بارزة : ظاهرة .

مشفقين : خائفين .

ويلتنا : هلاكنا .

يغادر : يترك .

أحصى : عدّ وأثبت .

عضدا : أعوانا وأنصارا .

موبقا : مهلكا .

مصرفا : مكانا ينصرفون إليه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الوزن الحق للباقيات الصالحات يوم القيامة .

٢ ـ أن نعلم أن سجل الأعمال شامل دقيق ، ولا يملك صاحبه تفلتا ولا هربا .

٣ ـ أن نعلم أن تلبية دواعى المعصية بمثابة اتخاذ إبليس وذريته أولياء .

المحتوى التربوى :

يقرر السياق بميزان العقيدة قيم الحياة التى يتعبدها الناس فى الأرض ، والقيم الباقية التى تستحق الاهتمام ، فيقرر أن المال والبنين زينة الحياة ، والإسلام لا ينهى عن المتاع بالزينة فى حدود الطيبات ، ولكنه يعطيها القيمة التى تستحقها الزينة فى ميزان الخلود ولا يزيد ، فهما زينة ولكنهما ليسا قيمة ، فما يجوز أن يوزن بهما الناس ولا أن يقدروا على أساسهما فى الحياة ، إنما القيمة الحقة للباقيات الصالحات من الأعمال ، والأقوال ، والعبادات .

يقول صاحب الظلال : « إذا كان أمل الناس عادة يتعلق بالأموال والبنين ، فإن الباقيات الصالحات خير ثوابا وخير أملا ، عندما تتعلق بها القلوب ، ويناط بها الرجاء ، ويرتقب المؤمنون نتاجها وثمارها يوم الجزاء » .

وينتقل السياق من الحديث عن الباقيات الصالحات ليصف اليوم الذى يكون للباقيات الصالحات وزن فيه وحساب ، يعرضه فى مشهد من مشاهد القيامة تشترك فيه الطبيعة ، ويرتسم الهول فيه وعلى صفحاتها وعلى صفحات القلوب ، مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير ، فكيف بالقلوب، وتتبدى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد، ولا جبال فيها ولا وديان وكذلك تنكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية .

ومن هذه الأرض المستوية المكشوفة التى لا تخبئ شيئا ولا تخفى أحدًا إلى الحشر الجامع الذى لا يخلف أحداً ، ومن هذا الحشر إلى العرض الشامل .

هذه الخلائق كلها محشورة مجموعة مصفوفة ، لم يتخلف منها أحد ، فالأرض مكشوفة مستوية لا تخفى أحدا ، وهنا يتحول السياق من الوصف إلى الخطاب ، فكأنما المشهد حاضر اللحظة ، شاخص نراه ونسمع ما يدور فيه ، ونرى الخزى على وجوه القوم الذين كذبوا بذلك الموقف وأنكروه .

وإننا نكاد نلمح الخزى على الوجوه ، والذل فى الملامح ، وصوت الجلالة الرهيب يجبه هؤلاء المجرمين بالتأنيب : هأنتم قد جئتم إلينا فرادى كما خلقناكم فرادى ، وكنتم تزعمون أن ذلك لن يكون .

ويوضع أمامهم سجل أعمالهم ، وهم يتملونه ويراجعونه ، فإذا هو شامل دقيق ، وهم خائفون من العاقبة ضيقو الصدور بهذا الكتاب الذى لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا تند عنه كبيرة ولا صغيرة ، ثم هم يدعون بالويل دعوة المحسور المغيظ الخائف المتوقع لأسوأ العواقب ، وقد ضبط مكشوفا لا يملك تفلتا ولا هربا ، ولا مغالطة ولا مداورة ، عمله حاضر وهو ملاق جزاء عادلا من الله العادل .

وينبه السياق إلى أن هؤلاء المجرمين الذين وقفوا ذلك الموقف كانوا يعرفون أن الشيطان عدو لهم ، ولكنهم تولوه ، فقادهم إلى ذلك الموقف العصيب ، فما أعجب أن يتولوا إبليس وذريته وهم لهم عدو منذ ما كان بين آدم وإبليس ، واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل فى تلبية دواعي المعصية والتولى عن دواعى الطاعة .

ويأتى الاستنكار لهذا الولاء فلماذا يتولون أعداءهم هؤلاء ، وليس لديهم علم ولا هم قوة ، فالله لم يشهدهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه ، والله لا يتخذهم عضدا فتكون لهم قوة وإنما هم خلق من خلق الله لا يعلمون غيبه ، ولا يستعين بهم ـ سبحانه ، فهو المستقل بخلق الأشياء كلها ، ومدبرها ومقدرها ، ليس معه فى ذلك شريك ولا وزير ، ولا مشير ولا نظير .

فهل يتخذ الله ـ سبحانه غير المضلين عضدا ؟ تعالى الله الغنى عن العالمين ذو القوة المتين ، إنما هو تعبير فيه مجاراة لأوهام المشركين لتتبعها واستئصالها ، فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله ، إنما يسلكون هذا المسلك توهما منهم أن للشيطان علما خفيا وقوة خارقة والشيطان مضل ، والله يكره الضلال والمضلين ، فلو أنه ـ على سبيل الفرض والجدل ـ كان متخذا له مساعدين ، لما اختارهم من المضلين ، وهذا هو الظل الذى يراد أن يلقيه التعبير .

وعلق الشيخ أبو زهرة قائلا : « وهذا النص السامى يشير أولاً : إلى وجوب الحذر من إغواء إبليس وذريته وبيان أنهم لا قوة لهم إلا بضعف نفوسكم واستحذائها فليس لهم قوة ذاتية ، إنما قوتهم من ضعفكم ، ويشير ثانيا : إلى أنه لا إرادة لهم فى شىء فى الوجود إلا ما تكسبه الأنفس الضالة ، ويؤكد ثالثا : إلى أن الله وحده خالق كل شىء » .

ثم يعرض السياق مشهدا من مشاهد القيامة يكشف عن مصير الشركاء ، ومصير المجرمين وهم فى الموقف الذى لا تجدى فيه دعوى بلا برهان ، والديان يطالبهم أن يأتوا بشركائهم الذين زعموا ، ويأمرهم أن يدعوهم ليحضروا ، وإنهم لفى ذهول ينسون أنها الآخرة ، فينادون لكن الشركاء لا يجيبون ، وهم بعض خلق الله الذين لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا فى الموقف المرهوب ، وقد جعل الله بين المعبودين وعبادهم مهلكة لا يجتازها هؤلاء ، ولا هؤلاء:إنها النار .

ويعاين المجرمون جهنم حين يجاء بها تقاد بسبعين ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك ، وتمتلئ نفوسهم بالخوف والهلع ، وهم يتوقعون فى كل لحظة أن يقعوا فيها ، وما أشق توقع العذاب وهو حاضر ، وقد أيقنوا ألا نجاة منها ولا محيص .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على المسلم أن يؤثر ما يبقى على ما يفنى ، وأن يعمل الصالحات ليوم الحساب .

٢ ـ الكل يجازى على عمله يوم القيامة ؛ ولا يظلم ربك أحدا .

٣ ـ على المسلم أن يحاذر عداوة إبليس ويتخذه عدوا .

٤ ـ لا يستحق العبادة أحد سوى الله ، ومن كفر فإن جهنم مثواه .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟
إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ
إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ
وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ
ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ
ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾
وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم
مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ
أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
٣٠٠

معانى الكلمات :

صرفنا : كررنا بأساليب مختلفة .

قبلا : أنواعا وألوانا أو مقابلة ومواجهة .

ليدحضوا : ليبطلوا ويزيلوا .

أكنة : أغطية كثيرة مانعة .

وقرا : صمما .

موئلا : ملجأ ومخلصا .

مجمع : ملتقى .

حقبا : زمنا طويلا .

سربا : منفذا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يعلم أهل الحق أن أهل الباطل أكثر خصومة فى باطلهم ، وعليهم أن يعدوا العدة .

٢ ـ أن نعلم أن الرسل لم يرسلوا إلا مبشرين للمؤمنين ومخوفين للكافرين .

٣ ـ أن نعلم أن الظالم من أعرض عن آيات ربه ونسى ذنوبه .

٤ ـ أن نعلم أن من رحمة الله تأخير العذاب حتى يراجع العاصى نفسه .

المحتوى التربوى :

ينتقل السياق إلى إقامة الحجة على المشركين ؛ فقد كان لهم عن النار مصرف ، لو أنهم صرفوا قلوبهم من قبل للقرآن ، ويذكر الله عز وجل نعمته على خلقه بهذا القرآن ، وطبيعة الإنسان التى تصرفه عن الاستفادة الكاملة من هذا القرآن ، وكان الإنسان أكثر الأشياء التى يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحدًا بعد واحد ، خصومة ومماراة بالباطل .

جاءت هذه الآية بعد أن بين الله عاقبة الذين اتخذوا الشياطين أولياء ، مبينا فيها أنه قد وضح لهم فى هذا القرآن الأمور ، فإن الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة ، والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هداه الله وبصره ، فكم من مثل ضربه الله لينقل الإنسان إلى الحال الأعلى ، ورأينا نموذجا على جدال الإنسان بالباطل فى بعض هذه الأمثال .

يقول صاحب **الظلال** : « ويعبر السياق عن الإنسان فى هذا المقام بأنه « شىء» وأنه أكثر شىء جدلا ؛ ذلك كى يطامن الإنسان من كبريائه ، ويقلل من غروره ، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة ، وأنه أكثر هذه الخلائق جدلا ، بعد ما صرف الله فى هذا القرآن من كل مثل » .

ثم يعرض الشبهة التى تعلق بها من لم يؤمنوا ـ وهم كثرة الناس على مدار الزمان والرسالات، فلقد جاءهم من الهدى ما يكفى للاهتداء ، بحيث لا يبقى مانع يمنع من الإيمان ، ولكنها الطبيعة الحجود التى لا تصدق إلا إذا هلكت ، أو رأت عذاب الآخرة ، فهى لا تصدق ما أنذرها به الرسل حتى يقع ، فكانوا يطلبون أن يحل بهم ماحل بالمكذبين من قبلهم من هلاك ـ استبعادًا لوقوعه واستهزاء ـ أو أن يأتيهم العذاب مواجهة يرون أن سيقع بهم ، وعندئذ فقط يوقنون فيؤمنون .

وليس هذا أو ذاك من شأن الرسل ، فأخذ المكذبين بالهلاك ـ كما جرت سنة الله فى الأولين بعد مجىء الخوارق وتكذيبهم بها أو إرسال العذاب ، كله من أمر الله أما الرسل فهم مبشرون ومنذرون ، ويجادل الكافرون يحاولون غلبة الحق وإبطاله ، والحق واضح ، ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه ، وهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون بالعذاب لا يبغون اقتناعًا ، إنما هم يستهزئون بالآيات والنذر ويسخرون .

وهؤلاء الذين يستهزئون بآيات الله ونذره لا يرجى منهم أن يفقهوا هذا القرآن ، ولا أن ينتفعوا به ؛ لذلك جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون فقهه ، وجعل فى آذانهم كالصمم ، فلا يستمعون إليه . وقدر عليهم الضلال ـ بسبب استهزائهم وإعراضهم ـ فلن يهتدوا إذًا أبدًا ، فللهدى قلوب متفتحة مستعدة للتلقى .

ولكن الله يمهلهم رحمة بهم ، ويؤخر عنهم الهلاك الذى يستعجلون به ، ولكنه لن يهملهم فلهم موعد ليس لهم عنه محيص ولا محيد ولا معدل ، موعد فى الدنيا يحل فيه شىء من العذاب ، وموعد فى الآخرة يوفون فيه الحساب .

ولقد ظلموا فكانوا مستحقين للعذاب أو الهلاك كالقرى قبلهم ، لولا أن الله قدر إمهالهم إلى موعدهم لحكمه اقتضتها إرادته فيهم ، فلم يأخذهم أخذ القرى ، بل جعل لهم موعدًا آخر لا يخلفونه ، فلا يغرنهم إمهال الله فإن موعدهم بعد ذلك آت ، وسنة الله لا تتخلف ، والله لا يخلف الميعاد .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ أن هذا المقطع جاء فى وسط السورة بعد ضرب أمثال كثيرة ، فكأن هذا المقطع جاء ليقرر مجموعة الأوامر التى تعالج الأمراض .. التى تنبع كلها من موضوع تزيين الحياة الدنيا ، فالشيطان هو الذى يزين الحياة الدنيا هو الإيمان بالله ، والاستغفار ، والاهتداء بهدى القرآن فآمنوا واستغفروا ، واهتدوا ، وهذا كله يقتضى تسليما لله ـ تعالى ـ يتمثل بالتسليم لهذا القرآن فلا تجادلوا واستسلموا » .

ثم يعرض السياق حلقة من سيرة موسى عليه السلام لا تذكر فى القرآن إلا فى هذا الموضع ، والقرآن لا يحدد المكان الذى وقعت فيه إلا بأنه مجمع البحرين ، ولا يحدد التاريخ الذى وقعت فيه من حياة موسى ، ولا يذكر شيئا عن العبد الصالح الذى لقيه موسى ، من هو ؟ ما اسمه ؟ هل هو نبى أو رسول ؟ أم عالم ؟ أو ولى ؟

ونحن نقف عند نصوص القصة فى القرآن ، ونعتقد أن لعرضها فى القرآن على النحو الذى عرضت به دون زيادة ، ودون تحديد للمكان والزمان والأسماء ، حكمة خاصة .

ونفهم من سياق القصة أنه كان لموسى عليه السلام هدف فى رحلته ، فهو يعلن تصميمه على بلوغ مجمع البحرين مهما تكن المشقة ، ومهما كان الزمن الذى ينفقه فى الوصول ، وقد أمر بحمل مملوح معه ، وسار هو وفتاه حتى بلغا مجمعا البحرين فجعل يسير فيه ، والماء مثل الطاق لا يلتئم بعده .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ على الإنسان أن يقلل من غروره ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله .

٢ ـ على المسلم ألا ينس ذنوبه ، ولا يغتر بإمهال الله .

٣ ـ الإيمان والاستغفار سمة خاصة للمؤمنين .

٤ ـ إهلاك الظالمين سنة الله التى لا تتخلف .

٥ ـ القرآن ليس تسلية وتلهية بل عظة وادكار .

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ
عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾

معانى الكلمات :

نصبا : تعبا شديدا .

أوينا : التجأنا .

نبغ : نطلب .

ارتدا : رجعا .

رشدا : صوابا .

إمرا : عظيما منكرا أو عجبا .

ترهقنى : تحملنى .

نكرا : منكرا فظيعا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعرف على الأدب اللائق مع المعلم ، فيجب أن تراعى منازل الناس .

٢ ـ الحمية التى تأخذ المصلح تفوت خيرا كثيراً .

٣ ـ على المسلمين فى تهاونهم أن يلتفوا على قواعد متفق عليها ، رجاء ثمرة هذه التعاون واستمراره .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق الحديث عن قصة موسى ، فيعلن أنه لما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كانا من الغداة ، قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا ، ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره الله به ، فأخبره الفتى بالأمر الذى جرى ، فقد كان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجبا .

وأدرك موسى أنه جاوز الموعد الذى حدده ربه له للقاء عبده الصالح وأنه هنالك عند الصخرة ، ثم عاد على أثره هو وفتاه فوجداه ، ويبدو أن ذلك اللقاء كان سر موسى وحده مع ربه فلم يطلع عليه فتاه حتى لقياه ومن ثم ينفرد موسى والعبد الصالح فى المشاهد التالية للقصة.

ويلقى موسى عليه السلام الخضر ، ويسأله أن يتبعه على أن يتعلم منه ؛ يستفهم ولا يجزم ، ويطلب العلم الراشد من العبد الصالح العالم .

قال ابن كثير : « سؤال تلطف لا على وجه الإلزام والإجبار ، وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العالم » .

ولكن علم الرجل ليس هو العلم البشرى الواضح الأسباب القريب النتائج ، إنما هو جانب من العلم اللدنى بالغيب أطلعه الله عليه بالقدر الذى أراده ، للحكمة التى أرادها ، ومن ثم فلا طاقة لموسى بالصبر على الرجل وتصرفاته ولو كان نبيا رسولا ؛ لأن هذه التصرفات حسب ظاهرها قد تصطدم بالمنطق العقلى ، وبالأحكام الظاهرة ، ولابد من إدراك ما وراءها من الحكمة المغيبة وإلا بقيت عجيبة تثير الاستنكار ؛ لذلك يخشى العبد الصالح الذى أوتى العلم اللدنى على موسى ألا يصبر على صحبته وتصرفاته ، ويعزم موسى على الصبر والطاعة ويستعين الله ويقدم مشيئته .

قال صاحب الكشاف : « رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر ، فوعده بالصبر معلقا بمشيئة الله ؛ علما منه بشدة الأمر وصعوبته ، وأن الحمية التى تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق ، هذا مع علمه أن النبى المعصوم الذى أمره الله بالمسافرة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برئ من أن يباشر ما فيه غميزة فى الدين » .

ويذكر الخضر شرط صحبته قبل بدأ الرحلة بعدما قبله متعلما ، وهو أن يصبر فلا يسأل ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له عن سرها ويرضى موسى .

يقول صاحب الأساس : « نلاحظ فى قصة الخضر مع موسى عليهما السلام أن الخضر اشترط على موسى شروطًا للسير والصحبة ، فلما أخلَّ بها موسى عليه السلام تم الفراق ، وفى كثير من المراحل أو الأحيان لا يجمع المسلمين سلطة تنفيذية تجب طاعتها شرعا ، فعلى المسلمين فى هذه الحالة أن يعملوا مع بعضهم متعاونين لتحقيق الأهداف المفروضة ، وقد جرت العادة أن يلتقى هؤلاء المتعاونون على قواعد متفق عليها ، تحكمهم مع بعضهم ، وعلى أنظمة متفق عليها يلتزمون بها ، وعلى ضوء ذلك يكون السير ، ومن قصة موسى مع الخضر نفهم أنه إذا كان السير مشروطا

بشرط ، وحدث إخلال بهذا الشرط ، فإن المخل بالشرط يفارق ، ذلك حق للطرف الآخر إلا إذا تنازل عن حقه » .

ونقف أمام المشهد الأول لهما ؛ فإذا بهما قد انطلقا لما توافقا واصطحبا ، واشترط عليه ألا يسأله عن شيء أنكره حتى يكون هو الذى يبتدئه من تلقاء نفسه بشرحه وبيانه ، فركبا فى سفينة تحملها وتحمل معهما ركابا ، وهم فى وسط اللجة ، ثم يجيء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة ، وظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تعرض السفينة وركابها لخطر الغرق وتؤدى بهم إلى هذا الشر ، فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر ؟

لقد نسى موسى ما قاله هو وما قاله صاحبه ، أمام هذا التصرف العجيب الذى لا مبرر له فى نظر المنطق العقلى ، ومن ثم لم يصبر على فعلة الرجل ، ولم يستطع الوفاء بوعده الذى قطعه أمام غرابتها ، ولكن الطبيعة البشرية كلها تلتقى فى أنها تجد للتجربة العملية وقعا وطعمًا غير التصور النظرى ، ولا تدرك الأمور حق إدراكها إلا إذا ذقتها وجربتها .

ومن هنا اندفع موسى مستنكرا ، وفى صبر ولطف يذكره العبد الصالح بما كان قد قال منذ البداية، ويعتذر موسى بنسيانه، ويطلب إلى الرجل أن يقبل عذره ولا يرهقه بالمراجعة والتذكير ، ويقبل الرجل اعتذاره ، فنجدنا أمام المشهد الثانى :

وإذا كانت الأولى خرق سفينة واحتمال غرق من فيها ، فهذه قتل نفس قتل عمد لا مجرد احتمال ، وهى فظيعة كبيرة لم يستطع موسى أن يصبر عليها على الرغم من تذكره لوعده ، فليس ناسيا فى هذه المرة ولا غافلا ، ولكنه قاصد ، قاصد أن ينكر هذا النكر الذى لا يصبر على وقوعه ، ولا يتأول له أسبابا ، والغلام فى نظره برىء لم يرتكب ما يوجب القتل ، بل لم يبلغ الحلم حتى يكون مؤاخذا على ما يصدر منه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ لا مانع من أن يذهب العالم إلى من هو أعلم منه ؛ ليزداد منه علما ومعرفة .

٢ ـ العلم الربانى هو ثمرة الإخلاص والتقوى ، ويسمى « العلم اللدنى » يورثه الله لمن أخلص العبودية له .

٣ـ المؤمن يرى بنور الله ، والاعتذار عند الخطأ لا يقلل من قيمة الإنسان .

٤ ـ التواضع والملاطفة فى مخاطبة العلماء والفضلاء .

٥ ـ التعاون المثمر لا يكون إلا عن اتفاق على قواعد مقرره تحكمهم .

قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن
سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا
﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي
وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ
عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَسْأَلُونَكَ
عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾
٣٠٢

معانى الكلمات :

استطعما : طلبا طعاما .

أبوا : امتنعوا .

ينقض : ينهدم ويسقط بسرعة .

تأويل : تفسير .

غصبا : استلابا بغير حق .

يرهق : يكلف .

رحما : رحمة وعطفا وبرا .

أشدهما : قوتهما وكمال عقلهما .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن يرضى المؤمن بقضاء الله تعالى ، وإن كان ظاهره ضارا .

٢ ـ أن نعلم حسن تدبير الله تعالى لأوليائه بما ظاهره عذاب ولكن فى باطنه رحمة .

٣ ـ أن نتعلم أن نكون كالشجرة تُرمى بالحجر فترمى بالثمر .

المحتوى التربوى :

مرة أخرى يرد العبدُ الصالحُ موسى عليه السلام إلى شرطه الذى شرط ، ووعده الذى وعد ، ويذكره بما قال له أول مرة ، والتجربة تصدقه بعد التجربة ، وفى هذه المرة يعين أنه قال له على وجه التعيين والتحديد عدم استطاعته ، فلم يقتنع وطلب الصحبة وقبل الشرط .

ويعود موسى إلى نفسه ، ويجد أنه خالف عن وعده مرتين ، ونسى ما تعهد به بعد التذكير والتفكير ، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ، ويجعلها آخر فرصة أمامه .

وينطلق السياق فإذا نحن أمام المشهد الثالث ؛ فقد انطلقا إلى قرية ، وطلبا الضيافة ، فامتنعوا من أن يطعموهما الطعام الذى هو حق ضيافتهما عليهم ، فكان أهلها بخلاء ، لا يطعمون جائعا ، ولا يستضيفون ضيفا ، ثم يجد أن جداراً مائلا يهم أن ينقض ، والتعبير يخلع على الجدار حياة وإرادة كالأحياء فيقول : ﴿ يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ فإذا الرجل الغريب يشغل نفسه بإقامة الجدار دون مقابل .

وهنا يشعر موسى بالتناقض فى الموقف ، ما الذى يدفع هذا الرجل أن يجهد نفسه ويقيم جدارا يهم بالانقضاض فى قرية لم يقدم لهما أهلها الطعام وهما جائعان، وقد أبوا أن يستضيفوهما ؟ فلا أقل من أن يطلب عليه أجراً يأكلان منه ؟ وواجهه بأنه كان ينبغى ألا يعمل لهم مجانا .

وكانت هى الفاصلة ، فلم يعد لموسى من عذر ، ولم يعد للصحبة بينه وبين الرجل مجال وإلى هنا كان موسى عليه السلام أمام مفاجآت متوالية ، لا نعلم لها سرًا ، وموقفنا منها ، كموقف موسى ، فكل الجو غامض مجهول ، وكذلك اسم الرجل غامض مجهول فى سياق القرآن ثم يأخذ السر فى التجلى ، ويأتى تفسير ما أشكل أمره على موسى عليه السلام ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الخضر عليه السلام على باطنه فقال : إن السفينة إنما خرقتها لأعيبها ؛ لأنهم كانوا يمرون بها على ملك من الظلمة ، وبهذا العيب نجت السفينة من أن يأخذها ذلك الملك الظالم غصبا ، وكان الضرر الصغير الذى أصابها اتقاء للضرر الكبير الذى يكنه الغيب لها لو بقيت على سلامتها .

والغلام الذى لا يبدو فى حاضره ومظهره أنه يستحق القتل ، قد كشف ستر الغيب عن حقيقته للعبد الصالح ، فإذا هو فى طبيعته كافر طاغ ، تكمن فى نفسه بذور الكفر والطغيان ، وتزيد على الزمن بروزا وتحققا ، فلو عاش لأرهق والديه المؤمنين بكفره وطغيانه ، وقادهما بدافع حبهما له أن يتبعاه فى طريقه ، فأراد الله ووجه إرادة العبد الصالح إلى قتل هذا الغلام الذى يحمل طبيعة كافرة طاغية ، وأن يبدلهما الله خلفا خيرا منه ، وأرحم بوالديه ، وما فعله الخضر من قتل الغلام فهو مخصوص به ، ولو فرضنا أن الله أطلع بعض أوليائه ، كما أطلع الخضر عليه السلام لم يجز له ذلك .

وأما الجدار الذى أتعب الرجل نفسه فى إقامته ، ولم يطلب عليه أجرا من أهل القرية ـ وهما جائعان وأهل القرية لا يضيفونهما ـ كان يخبئ تحته كنزًا ، ويغيب وراءه مالاً لغلامين يتيمين ضعيفين فى المدينة ، ولو ترك الجدار ينقض لظهر من تحته الكنز فلم يستطع الصغيران أن يدفعا عنه ، ولما كان أبوهما صالحا فقد نفعهما الله بصلاحه فى طفولتهما وضعفهما ، فأراد أن يكبرا ويشتد عودهما ، ويستخرجا كنزهما وهما قادران على حمايته ، ثم ينفض الرجل يده من الأمر ،

فهى رحمة الله التى اقتضت هذا التصرف ، وهو أمر الله لا أمره ، فقد أطلعه على الغيب فى هذه المسألة وفيما قبلها ، ووجهه إلى التصرف فيها وفق ما أطلعه عليه من غيبه .

فالآن ينكشف الستر عن حكمة ذلك التصرف ، كما انكشف عن غيب الله الذى لا يطلع عليه أحدًا إلا من ارتضى .

وفى دهشة السر المكشوف ، والستر المرفوع يختفى الرجل من السياق كما بدا ، لقد مضى فى المجهول كما خرج من المجهول ، فالقصة تمثل الحكمة الكبرى ، وهذه الحكمة لا تكشف عن نفسها إلا بمقدار ، ثم تبقى مغيبة فى علم الله وراء الأستار ، وهكذا ترتبط قصة موسى والعبد الصالح بقصة أصحاب الكهف فى ترك الغيب لله ، الذى يدبر الأمر بحكمته ، وفق علمه الشامل الذى يقصر عنه البشر .

يقول صاحب الأساس : « رأينا فى القصة أن الحكم أثر العلم ، فبدون علم يصعب على الإنسان أن يعطى حكم الله مُراعىً فيه كل شىء ، وبقدر إحاطة العلم يكون الإدراك لحكم الله فى الموضوع المطروح أصح ، ورأينا فى القصة من أدب الرسالة والنبوة والولاية ومن أدب الصحبة والخدمة الكثير ، ورأينا كيفية العلاقة الراقية التى يكون عليها أحباب الله دون مجاملة على حساب دين الله ، ورأينا حكمة الله إذ يختار لنبوته ورسالته ، ولايته من ليس لهم حظوظ نفسية أو دنيوية ورأينا عطاء الله الذى لا نهاية له ؛ فكم أعطى الله موسى مما قد يتصور ناس أنه لا مزيد عليه ، وإذا به يعطى خضرا فى جوانب أكثر مما أعطاه موسى ..

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ بدون علم يصعب على الإنسان أن يعطى حكم الله مراعىً فيه كل شىء .

٢ ـ العلاقة التى يكون عليها أحباب الله علاقة راقية دون مجاملة على حساب دين الله .

٣ ـ صلاح الأبناء بصلاح الآباء ، فتقوى الوالد وإن مات أمان لضعف المولود .

٤ ـ إن فى قصة الخضر مع موسى عليهما السلام درسا بليغا ، فإذا كان الله لا يعجز أن يجعل عبدا زمن موسى أعلم من موسى فى جوانب ، أفيعجزه أن يجعل محمداً ﷺ أعلم من موسى وأرقى ، وأن يعطيه ختم النبوة ، ويكرمه بالإسلام الناسخ لكل دين ، والقرآن الذى هو أشرف من كل كتاب ، تعالى الله أن يعجزه شىء من ذلك .

الجزء السادس عشر — سورة الكهف

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا
﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ
وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ
فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ
فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً
ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ
إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن
دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ
سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا
لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ
مُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ
سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ
قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا
﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

٣٠٣

معانى الكلمات :

سببا : علما وطريقا.

حمئة : ذات حمأة وهى الطين الأسود .

نكرا : فظيعا منكرا .

خبرا : علما شاملا .

خرجا : قدرا من المال تستعين به فى البناء .

زبر الحديد : قطع الحديد العظيمة .

الصدفين : جانبى الجبلين .

قطرا : نحاسا مذابا .

نقبا : خرقا .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أنه ليس فى القرآن شىء من التاريخ من حيث هو قصص وأخبار ، وإنما هو آيات وعبر وأحكام وآداب تجلت فى سياق الوقائع .

٢ ـ أن نتعلم تنشيط الهمم لرفع العوائق .

٣ ـ أن نتعلم تعريف الغير ثمرة العمل المهم ، ليعرفوا قدره فيظهروا شكره .

المحتوى التربوى :

يبدأ الحديث عن ذى القرنين بذكر شىء ، عنه ، فلقد مكن الله له فى الأرض ، فأعطاه سلطانا وطيد الدعائم ، ويسر له أسباب الحكم والفتح ، وأسباب البناء والعمران ، وأسباب السلطان والمتاع ، وسائر ما هو من شأن البشر أن يمكنوا فيه فى هذه الحياة ، ومضى فى وجه ما هو ميسر له.

يقول صاحب الأساس : « وهذه قصة مسلم أتاه الله عز وجل من الملك الكثير ، ومكنه فى الأرض تمكينا كبيرا ، وجعله يسخر الأسباب كلها ، فلا يظنن ظان أن الدخول فى الإسلام لا يعنى التمكين فى الأرض ، بل على العكس من ذلك فإن التمكين يكون أكبر ، ولا يظنن ظان أن الدخول فى الإسلام يعنى ترك الأسباب والبعد عنها ، بل على العكس من ذلك ، فإن الدخول

فى الإسلام يعنى اتباع الأسباب كلها مع التوفيق الربانى لاستعمالها فى محلها ، ولا يظنن ظان أن الدخول فى الإسلام يحرم الإنسان رزقا ، بل على العكس من ذلك ، فإن الدخول فى الإسلام يرافقه الرزق الحسن، ولا يظنن ظان أن الدخول فى الإسلام ينقص من قدر الإنسان، بل يكمله .

والمسلمون مكلفون بإقامة الإسلام ضمن عالم الأسباب ، قد يمدهم الله بالخوارق ، ولكن التكليف على أساس عالم الأسباب اللازمة والمستطاعة لإقامة الشىء الذى كلفوا به ، فهم مكلفون أن تكون كلمة الله هى العليا فى العالمين ، فعليهم أن يعملوا من أجل إيجاد الأسباب التى توصل إلى ذلك » .

ويذكر السياق أن الله أعطى لذى القرنين من كل شىء سببا ، وقد اتبع الأسباب الموصلة إلى الغايات فسلكها ، وسار فى طريقه إلى الغرب ، والظاهر من النص أن ذا القرنين غرب حتى وصل إلى نقطة على شاطئ المياه فرأى الشمس تغرب فيه ، ويتعذر علينا تحديد المكان ، لأن النص لا يحدده ، وكل قول غير هذا ليس مأمونا ؛ لأنه لا يستند إلى مصدر صحيح ، ولكنه غرّب ووجد الشمس تغرب فى عين حمأة حيث تكثر الأعشاب ، ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ .

عند هذه الحمئة وجد ذو القرنين قوما ، وقد أمكنه الله منهم وأظهره بهم ، وحكمه فيهم ، وجعل له الخيرة فى شأنهم بالقتل وغيره ، وأعلن ذو القرنين دستوره فى معاملة البلاد المفتوحة التى دان له أهلها وسلطه الله عليها ، أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوى وعقابه ، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذابا فظيعا ، لا نظير له فيما يعرفه البشر ، أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن والتكريم .

قال صاحب الظلال : « هذا هو دستور الحكم الصالح فالمؤمن الصالح ينبغى أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم ، والمعتدى الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء ، وحين يجد المحسن فى الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنا ، ومكانا كريما وعونا وتيسيرًا ، ويجد المعتدى جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة ، عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج » .

ويعود ذو القرنين من رحلة المغرب إلى رحلة المشرق ممكنا له فى الأرض،ميسرة له الأسباب، حتى إذا بلغ مطلع الشمس ، وما قيل عن مغرب الشمس ، يقال عن مطلعه ، فالقرآن لم يحدد المكان ولكنه وصف طبيعة وحال القوم الذى وجدهم ذو القرنين هناك ، والمشهد الذى يعرضه السياق هو مشهد مكشوف فى الطبيعة : الشمس ساطعة لا يسترها عن القوم ساتر ، وكذلك ضمير ذى القرنين ونواياه كلها مكشوفة لعلم الله .

ونحن لا نستطيع أن نجزم بشىء عن المكان الذى بلغ إليه ذو القرنين بين السدين ، ولا ما هما هذان السدان ، كل ما يؤخذ من النص أنه وصل إلى منطقة بين حاجزين طبيعيين أو بين

سدين صناعيين تفصلهما فجوة أو ممرٌ، فوجد هنالك قوما متخلفين ، وعندما وجدوه فاتحًا قويا ، وتوسموا فيه القدرة والصلاح ، عرضوا عليه أن يقيم لهم سدا فى وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجونهم من وراء الحاجزين ، ويغيرون عليهم من ذلك الممر ، فيعيثون فى أرضهم فسادا ، ولا يقدرون هم على دفعهم وصدهم ، وذلك فى مقابل خراج من المال يجمعونه له من بينهم .

ويرد عليهم ذو القرنين عرضهم بأن الذى أعطاه له الله من الملك والتمكين خير له من الذى تجمعونه ، ولكن ساعدونى بعملكم وآلات البناء ، فجمعوا له قطع الحديد ، وكومها فى الفتحة بين الحاجزين ، فأصبح الجبلان كأنهما صدفتان تغلقان ذلك الكوم بينهما ، وأصبح الركام بمساواة القمتين ، وطلب منهم أن ينفخوا على النار لتسخين الحديد ، حتى صار الحديد من شدة توهجه واحمراره نارا ، وطلب نحاسا مذابا ، ليلصق بالحديد ، ويتدعم البناء به ويشتد ، وأغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ، فما استطاعوا أن يتسوروه أو ينفذوا منه ، وتعذر عليهم أن يهاجموا هؤلاء القوم الضعاف المتخلفين .

ومن فوائد ما ذكرنا ما قاله **القاسمى** : « من فوائدها : الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض ، ورزقه من يشاء بغير حساب ملكا ومالا ، لما له من خفى الحكم وباهر القدرة ، فلا إله سواه ، ومنها: الإشارة إلى القيام بالأسباب والجرى وراء سنة الله فى الكون من الجد والعمل ، ومنها : تنشيط الهمم لرفع العوائق ، وأنه متى تيسرت الأسباب ، فلا ينبغى أن يعود ركوب البحر ولا اجتياز الفقر عذراً فى الخمول والرضاء بالدون ، بل ينبغى أن ينشط ، ويمثل فى مرارته حلاوة عقباه من الراحة والهناء ، ومنها : أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم ، فلا ينبغى أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال ، بل يعامل المحسن بإحسانه والمسىء بقدر إساءته » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ على قدر بذل الجهد يكون الفوز والظفر .

٢ ـ وجوب المبادرة لمعالى الأمور من الحداثة إذ من الخطأ التسويف فيه إلى الاكتهال .

٣ ـ على صاحب المكانة والمنصب التعفف عن أموال الناس ، ففى ذلك حفظ كرامته ، وزيادة الشغف بمحبته .

قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي
حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي
أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ
فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾
٣٠٤

معانى الكلمات :

دكاء : مسوى بالأرض .

يموج : يختلط ويضطرب .

غطاء : غشاء غليظ وستر كثيف .

وزنا : مقدارًا واعتبارًا .

مدادا : هو المادة التى يكتب بها .

نفد : فنى وفرغ .

مددا : عونا وزيادة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتطلع إلى الدار الآخرة ؛ لتبقى النفوس طامحة إلى ذلك العالم الباقى .

٢ ـ أن نتعرف على أكثر الناس خسارة .

٣ ـ أن نتعلم كيف يكون طريق السير إلى الله .

المحتوى التربوى :

نظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذى قام به ، فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسكره نشوة القوة والعلم ، ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد إليه العمل الصالح الذى وفقه إليه ، وتبرأ من قوته إلى قوة الله ، وفوض إليه الأمر ، وأعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض سطحا أجرد مستويا.

يقول صاحب الظلال : « بذلك تنتهى هذه الحلقة من سيرة ذى القرنين النموذج الطيب للحاكم الصالح يمكنه الله فى الأرض ويسر له الأسباب ، فيجتاح الأرض شرقا وغربا ، ولكنه لا يتجبر ولا يتكبر ، ولا يطغى ولا يتبطر ، ويتخذ من الفتوح وسيلة للغنم المادى واستغلال

الأفراد والجماعات والأوطان ، ولا يعامل البلاد المفتوحة ، معاملة الرقيق ، ولا يسخر أهلها فى أغراضه وأطماعه ، غنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به ، ويساعد المتخلفين ، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل ، ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح ، ودفع العدوان وإحقاق الحق، ثم يرجع كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله ، ولا ينسى وهو فى إبان سطوته قدرة الله وجبروته وأنه راجع إلى الله » .

ونعود إلى سياق السورة ، فنجده يعقب على ذكر ذى القرنين للوعد الحق بمشهد من مشاهد القيامة ، وهو مشهد يرسم حركة الجموع البشرية من كل لون وجنس وأرض ، ومن كل جيل وزمان وعصر ، مبعوثين منشرين يختلطون ويضطربون فى غير نظام وفى غير انتباه ، تتدافع جموعهم تدافع الموج وتختلط اختلاط الموج ، ثم إذا نفخة التجمع والنظام فإذا هم فى الصف فى نظام ، ثم إذا الكافرون الذين أعرضوا عن ذكر الله حتى لكأن على عيونهم غطاء ، ولكأن فى أسماعهم صمما . إذا بهؤلاء تعرض عليهم جهنم فلا يعرضون عنها كما كانوا يعرضون عن ذكر الله ، فما يستطيعون اليوم إعراضا ، لقد نزع الغطاء عن عيونهم نزعًا ، فرأوا عاقبة الإعراض والعمى جزاءً وفاقًا ، والتعبير ينسق بين الإعراض والعرض متقابلين فى المشهد ، متقابلين فى الحركة ، ويعقب على هذا التقابل بالتهكم اللاذع والسخرية المريرة من الكافرين ، أفحسب هؤلاء أن يتخذوا مخلوقات الله المستعبدة له أنصارًا من دونه ، ينصرونهم منه ويدفعون عنهم سلطانه ؟ إذن فليلقوا عاقبة هذا الحسبان جهنم نزلا ، ويا له من نزل مهيأ للاستقبال لا يحتاج إلى جهد ولا انتظار ، فهو حاضر ينتظر النزلاء الكفار .

ثم تختم السورة بالإيقاعات الأخيرة تلخص خطوطها الكثيرة وتجمع إيقاعاتها المتفرقة ، فأما الإيقاع الأول فهو الإيقاع حول القيم والموازين كما هى فى عرف الضالين ، وكما هى على وجه اليقين ، قيم الأعمال وقيم الأشخاص الذين يوجد من هم أشد منهم خسرانا ، وهم الذين ضل سعيهم فى الدنيا ولم يؤد بهم إلى الهدى، ومن غفلتهم أنهم ماضون فى هذا السعى الخائب الضال، ينفقون حياتهم فيه هدرا ، هؤلاء هم الذين كفروا وجحدوا آيات ربهم فبطلت أعمالهم لكفرهم، فلم يكن لهم مقدار ولا اعتبار ، فهم مهملون لا قيمة لهم ولا وزن ، ولهم بعد ذلك جزاؤهم جهنم بكفرهم .

ويتم التعاون فى المشهد بعرض كفة المؤمنين فى الميزان وقيمتهم بأن كان لهم نزل فى جنات الفردوس فى مقابل ذلك النزل فى نار جهنم وشتان شتان .

يقول صاحب الظلال : « هذه اللفتة الدقيقة العميقة إلى طبيعة النفس البشرية وإحساسها بالمتاع فى قوله : ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ تحتاج إلى وقفة بإزاء ما فيها من عمق ودقة ، فهم خالدون

فى جنات الفردوس ، ولكن النفس البشرية تمل الاطراد وتسأم البقاء على حال واحدة أو مكان واحد ، وإذا اطمأنت على النعيم من التغير والنفاد فقدت حرصها عليه ، وإذا مضى على وتيرة واحدة فقد تسأمه ، بل قد تنتهى إلى الضيق به والرغبة فى الفرار منه .

هذه هى الفطرة التى فطر عليها الإنسان لحكمة عليا تناسب خلافته للأرض ، ودوره فى هذه الخلافة ، فهذا الدور يقتضى تحوير الحياة وتطويرها حتى تبلغ الكمال المقدر لها فى علم الله ، ومن ثم ركز فى الفطرة البشرية حب التغير والتبديل ؛ وذلك كى يندفع الإنسان فى طريقه ، يغير فى واقع الحياة ، ويبدع فى نظم المجتمع وأشكال المادة ، ومن وراء هذا التغير ترتقى الحياة وتتطور ، وتتصل شيئا فشيئا إلى الكمال المقدر لها فى علم الله ، أما إذا غلب الركود والجمود ، فهو الإعلان بانحسار دوافع الحياة ، وهو الإيذان بالموت فى حياة الأفراد والجماعات سواء .

هذه هى الفطرة المناسبة لخلافة الإنسان فى الأرض ، فأما فى الجنة وهى دار الكمال المطلق فإن هذه الفطرة لا تقابلها وظيفة، فبارئ هذه النفس يحول رغباتها، فلا تعود تبغى التحول عن الجنة، وذلك فى مقابل الخلود الذى لا تحول له ولا نفاد .

وأما الإيقاع الثانى فيصور العلم البشرى المحدود بالقياس إلى العلم الإلهى الذى ليس له حدود ، ويقربه إلى تصور البشر القاصر بمثال محسوس .. والسياق يعرض لهم البحر بسعته وغزارته فى صورة مداد يكتبون به كلمات الله الدالة على علمه ، فإذا البحر ينفد ، وكلمات الله لا تنفد، ثم إذا هو يمدهم ببحر آخر مثله، ثم إذا البحر الآخر ينفد كذلك وكلمات الله تنتظر المداد..

وينطلق الإيقاع الثالث والأخير فيرسم أعلى أفق للبشرية، وهو أفق الرسالة الكاملة الشاملة، فالرسول بشر يتلقى وحيه من مولاه ، فمن كان يتطلع إلى القرب ، فليأخذ بالوسيلة التى لا وسيلة سواها : إخلاص لله وعمل صالح ، هذا هو جواز المرور إلى ذلك اللقاء الأثير .

يقول ابن كثير : « هذان ركنا العمل المتقبل : لابد أن يكون خالصا لله ، صوابا على شريعة رسول الله ﷺ » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ هلاك أصحاب الأهواء الذين يعبدون الله بغير ما شرع ، وأعمالهم مآلها إلى البوار .

٢ ـ لا قيمة ولا ثقل ولا وزن لعمل لا يوافق رضا الله تعالى وقبوله له ، ولا وزن لصاحبه عند الله .

٣ ـ على من يتطلع إلى لقاء ربه أن يكون عمله خالصا لله صوابا على شريعة رسول الله ﷺ .